مصر منذ تسعين سنة

للسائح الفرنسوي دي نرفال

(٤)

الوكيل

كان اليهودي يوسف التاجر الذي ذكرتهُ فيما سبق يأتي لزيارتي احياناً كثيرة ويظهر لي التودد فيجلس على « ديواني » ويشرب القهوة ويدخن . فيوماً ما اتاني قائلاً : علمت انك تفتش عن امرأة فاحضرت لك « الوكيل » . فاجبتهُ ومن هو الوكيل ؟ قال هو الواسطة بين الرجل الراغب في الزواج وبين اهل البنات وهو شيخ جليل ينفعك في هذه المسألة . وقد رجوت منهُ نيابة عنك ان يرى بنتاً موافقة لك وصالحة للزواج . فقلت لهُ ولكني لا اريد ان اعقد زواجاً في مصر . قال لست مضطراً لعقد الزواج الاَّ الى اجل محدود . قلت لا اريد ان اتسرى او ان اسكن مع امرأة على غير سنة الزواج ولربما كانت من النساء الفاجرات . قال كلا ليس الآن في القاهرة سوى النساء الاحرار لان سعادة افندينا نفى كل عواهر مصر الى اسنا والشلال وطهر مصر منهنَّ . قلت انني اذاً بالوكيل فدخل الوكيل وهو كما قال يوسف شيخ اعمى يقودهُ ابنهُ وهيأتهُ تدل على الاستقامة والرصانة . وقيل لي ان الوكيل لا يكون في الغالب الاَّ من العميان ليسهل عليهِ الدخول الى بيوت الاسر ومقابلة اهل البنات الراغبات في الزواج . فاستأجرنا الحمير وركبنا قاصدين الذهاب الى بيت رجل قبطي وعندهُ بنات صالحات للزواج . وكان الوكيل قبل حضوره اليَّ قد كلمهُ بشأني فضرب لهُ موعداً لارى البنت . والعادة ان الخاطب لا يمكنهُ ان يرى وجه خطيبتهِ ولا يعرف هيئتها وشكلها الاَّ انهُ يرسل نساء من اهلهِ فيرينها ويصفنها لهُ . ولكني اشترطت على الوكيل ان ارى الفتاة اذ ليس لي من اثق بهِ في هذه المهمَّة فلم يتردد ابو الفتاة في قبول هذا الشرط العادل تسامحاً . وبينما نحن سائرون قال لي يوسف مترجماً كلام الوكيل انهُ يمكنني ان اتزوج في مصر على اربع طرق مختلفة . فقلت وما هي ؟ فاجاب ان الطريقة الاولى هي ان تتزوج بفتاة قبطية بعقد اسلامي . وذلك ان يأتي بشيخ يقال لهُ المأذون فيكتب لك عقد الزواج بشهادة بعض الشهود واثبات القاضي

ولست مرغماً بهذا العقد على اتحال الدين الاسلامي . ولكن ليس كل القبطيات يرتضين بهذا العقد بل يرضى به الاَّ المتهتكات والفقيرات

واما الثانية فهي ان يعقد زواجك قسيس قبطي بشرط ان تدفع المهر وتحدد مبلغاً مؤجلاً تدفعهُ لزوجتك اذا شئت فيما بعد ان ترجع الى بلادك وتتركها هنا عند اهلها . قلت من العدل ان يدفع المهر في هذه الحالة ولكن كم مقدارهُ . قال بحسب منزلتك ومقدرتك المالية من مئة غرش الى مئتين فقط ! فقلت في نفسي خمسون فرنكاً انها لصفقة رابحة ! قال وتدفع ايضاً مبلغاً مضاعفاً اذا تركتها . ولكن بهذه الطريقة لا يمكنك ان تتزوج الاَّ بابنة فقيرة من اسرة وضيعة . واما ان شئت ان تتزوج بفتاة جميلة من اسرة وجيهة فيجب ان يعقد زواجك قسيس الاقباط في الكنيسة وان تتبع مذهبها . وفي هذه الحالة يكون زواجك مرتبطاً بحياتك لا يمكنك ان تطلق امرأتك ولا ان تتخذ بها بديلاً ولا تقدر ان تتركها وترجع الى بلادك او تدفع غرامة باهظة . قلت لا يمكنني ان اتزوج على هذه الطريقة

واما الطريقة الثالثة فهي ان تتزوج على مذهبك اللاتيني عن يد قسيسي الافرنج وهذا الزواج كما تعلم يجعلك مرتبطاً بزوجتك طول ايام حياتك ويجعلها مضطرة ان تتبعك اينما سرت . قلت لا لا . دعني من هذه الطريقة . وماذا ايضاً ؟

قال واما الرابعة فالزواج المدني عن يد قنصل حكومتك واذا كان لك صلة معرفة او صداقة باحد موظفي القنصلية فيمكنك ان يضيف الى عقد زواجك شرطاً يجعلك حرًّا مطلقاً اذا شئت الرجوع الى بلادك

واستمر الحديث بيني وبين الوكيل بواسطة يوسف اليهودي الى ان وصلنا الى منتهى حارة الاقباط تجاه الازبكية عند طريق مدينة بولاق . فدخلنا في بيت ظاهرهُ حقير مبني بالطوب في سوق تباع فيها الحوم والفاكهة (ربما كانت سوق النصارى الآن) . وقال لي الوكيل ان هذا البيت ليس لابي الفتاة بل لاحد اقاربها وسترى فيهِ ابنتين فاختر واحدة منهما . فقلت لهُ ولكني انذرك من الآن اني لا ادخل اذا كانتا تقابلاني وهما محجبتان . فقال كن مطمئناً فقد كلمت اهل البنات بذلك وقرروا فيما بينهم ان ليس من حرج اذا رأتهما افرنجي سافرتين مرة واحدة . فدخلنا الى دهليز مظلم ثم الى « مندرة » مفروشة بحصيرة فوقها « طراحة » . وعلى الطراحة اربعة رجال « متربعون » وكلهم بملابس زرقاء . فخشيت ان

يكون لوكيل قد اوقفني في كمين ولكن وجود البيت بالقرب من السوق جعلني اطمئن . ثم صعدنا الى علية نوافذها مطلة الى الخارج ومغطاة بشعريات ومشربيات بارزة فجلسنا على مقاعد واطئة ونظرت حولي فاذا كوة صغيرة مفتوحة في الجدار وعليها حاجز من خشب مثقوب فعلمت ان في الغرفة الاخرى مكمن النساء يرينا ولا نراهن . فجلسنا وجلس بجانبي يوسف اما الوكيل الاعمى وابنهُ فجلسا القرفصاء امامي وبعد هنيهة دخل شيخ جليل بلحية بيضاء طويلة وعلى رأسهِ عمامة سوداء قيل لي انهُ قسيس قبطي ثم دخل عم الفتاة او خالها وامرأة اخرى قيل لي انها « الوكيلة » او الخاطبة . وقالت ان الصبيتين تستعدان للدخول وقدمت لنا خلال ذلك القهوة والشيقات . وبعد برهة طويلة دخلت امرأتان محجبتان قيل لي انهما امّا الفتاتين . ولبثنا واقفتين عند الباب فدعوتهما للجلوس فأبتا وقال لي يوسف عن لسانهما انهما خادمتاي ولقفان احتراماً لي . ثم دخلت صبيتان مكشوفتا الوجه فتقدمتا وحنتا رأسهما امامي وقبلتا يدي فاشرت اليهما بالجلوس عن جانبي فأبتا كل الاباء وقال لي يوسف عن لسان الحاضرين دعهما فانهما جاريتاك

فلم اود كرجل فرنسوي ان ادع الفتاتين واقفتين امامي كجاريتين ولبثت مدة طويلة اشدد في الطلب وقال لي يوسف ان العادات الشرقية تمنع النساء والبنات من الجلوس امام الرجال تأدباً واحتراماً وخصوصاً في محل مثل هذا فلم اذعن لهذه العادة المغايرة لذوقي وآدابي الغربية واخيراً بعد مشاحنة طويلة جلستا . وكانتا متزينتين بثوب زاهر من القماش المعروف بالشيت فوقهُ رداء من « الموصلين المخرّم » وعلى رأس كل منهما طربوش احمر حوله قطع نقود « الفرازي » وعليهِ شرائط الحرير وتتدلى من اطرافهِ صفوف من « البندقيات » « والحموديات » الذهبية وربما كانت من النحاس المموه بالذهب . وكانت احداهما سمراء اللون سوداء الشعر والاخرى شقراء بيضاء . فالاولى تمثل العنصر المصري القديم وفي صحيفة الجسم طويلة القامة كالنخلة بعينين سوداوين يصفهما شعراء الشرق « بقامة كغصن البان وعيون المهى والغزلان » واما الشقراء فغضة الجسم بدينة ذات بشرة ناصعة البياض ادهشني وجود مثلها في مثل هذا المكان . فمالت عواطفي الى هذه الاخيرة وصرت الاطفها واطري محاسنها ولم اهمل السمراء من التلطف والمجاملة تأدباً . ولبثت مدة ساعة انتقل في الحديث بين الفتاتين واهملهما الأ اني لم اشر الى الزواج ولم اصرح برغبتي في من اخترتها عروساً لي واخيراً قال لي يوسف علام تعولت . قلت ساتروى في هذه المسألة وسارجع مرة اخرى لارى الفتاة الشقراء ايضاً وحينئذٍ اصرح بقصدي . فلم يقتنع القسيس القبطي ولا اهل

الفتاتين بجوابي هذا الفاضح واصروا ان اعلن عزمي فاجبتهم اني سأزورهم مرة اخرى وانهي المسألة . ورأيت انهم لم يثقوا بكلامي كل الثقة . ولما ودعتهم وخرجت رأيت في فسحة الدار الفتاة الشقراء تصلح ثقابها وقد ظهر محياها وشعرها الذهبي بعد ان سقط طربوشها فتظاهرت بالخجل ونظرت اليّ بابتسامة فاتنة تغلبت على ارادتي وعواطفي فالتفتّ الى يوسف وقلت لهُ قل لهم اني سارسل في الغد بعض الهدايا لهذه العروس الشقراء واني ساتزوجها على الطريقة الاسلامية امام المأذون الشرعي

فلما نقل كلامي الى ام الفتاة اظهرت الغضب والانفة واجابت لا ازوج ابنتي الاّ سيف الكنيسة عن يد القسيس القبطي فنحن من اسرة معروفة ورجالنا كتبة في دوائر الحكام . فقلت ليوسف سلها عن بعلها . فاجابت ان بعلي كان كاتباً في دائرة الباشا ومات منذ بضع سنين وهي لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها ولم تتزوج سوى مرة واحدة . فعمرحت بدهشة فهذه الفتاة ارملة اذاً ؟ فاجابت كلا بل مطلقة . قلت فقل لهم اذاً اني عدلت عن الزواج . فخرجت وانا افكر في هذا الامر الغريب المدهش ومع ذلك لم انكث بوعدي فارسلت في اليوم التالي الى الفتاتين قطعتين من القماش هدية

وكان الوكيل الاعمى يتردد اليّ في كل يوم ويعرض عليّ فتيات للزواج وكلهن من الاسر القبطية وكنت اذهب معهُ واُزورهنّ والحالة واحدة كما شرحتها في الزيارة الاولى من التجمل والاستقبال والحديث ولم اغفل قط عن ارسال الهدايا الى كل فتاة تقدم لي . وشاع امري في حارة الاقباط كلها فلم تأنف اسرة من قبول زيارتي حتى ان ارملة فقيرة احضرت ابنتها الى منزلي لاراها وعرضتها لتكون زوجة لي حسب الطريقة التي اختارها فرأيتها لا تصلح لي وصرفتها بعد ان زودتها بهدية

جنينة رشيد

ساء العربي ابراهيم الذي وضعهُ عندي الترجمان عبد الله عرضاً عنهُ تردد يوسف اليهودي والوكيل القبطي الى منزلي فاحضر لي يوماً شاباً مصرياً اسمهُ محمود وقال لي انهُ وكيل الزواج وان لهُ معرفة باسر وجيهة قبطية ورومية وعرض عليّ فتيات اكثر وجاهة واعلى منزلة من الفتيات اللواتي عرضت عليّ اولاً . وذكر لي فتاة من اسرة وجيهة غنية لا يتجاوز عمرها الخمسة عشر ربيعاً ولكن اهلها يشترطون عليّ ان اتزوج بها عن يد قنصل دولتي وقلت لهُ انها صغيرة السن لا تليق بمن يتجاوز الثلاثين سنة من عمره . فاجاب هذه هي السن

اللائقة للزواج هنا وقل تجد فتاة تجاوزت هذه السن الاَّ وتكون ارملة او مطلقة واهل هذه الفتاة عملوا بمنزلتك ورتبتك ورغبوا في مصاهرتك لانك ساكن وحدك في بيت كان يسكن فيه قبلك سائح انكليزي واجرتهُ السنوية ثلاثمائة غرش وكل الاقباط في هذا الحي يحسبونك جنرالاً او شريفاً بين قومك او حاكماً

قلت ولكني لست جنرالاً ولا حاكماً . قال يرون انك لا تعمل عملاً ولست بذي مهنة ولا تاجراً فلا بد ان تكون من ذوي الالقاب او الاملاك ويقولون انك « اميرلواء » . وقد علمت ان رتبة اميرلواء تعادل عندنا رتبة جنرال في الجيش وعزمت ان ازور هذه الاسرة الوجيهة التي تحسبني كفوءاً لها في الزواج . فركبنا الحمير واخذني الوكيل محمود الى الموسكي ثم انعطفنا شمالاً الى نواحي جنينة رشيد (درب الجنينة) فقرع محمود باب منزل وحضرت جارية سوداء ولقحت لنا ولما رأتنا اظهرت السرور . ثم رقيت السلم وكانت تصفق بيديها معلنة تشريف « الميرلوا » وسمعت فتح ابواب واغلاق ابواب ولغطاً كثيراً . واخيراً وصلنا الى الطبقة العليا فاستقبلنا هناك رجل بزة نظيفة وهيأة تدل على الوجاهة وعلى كتفهِ « مشلح » من الكشمير فرحب بنا وادخلنا الى مقصورة مفروشة بالفرو الرباش والسجاجيد العجمية وكان هناك غلام يافع طلق المحيا عرفني بهِ وقال انهُ ابنهُ . ثم دخلت علينا امرأة جميلة الهيأة في الثلاثين من عمرها فحيتني بتأدب وقدمت لي ولزوجها وللوكيل الشبقات والقهوة وعلمت من حديث صاحب الدار عن لسان ترجماني ابراهيم ان منشأ هذه الاسرة من الصعيد الاعلى من نواحي سوهاج وطهطا وهم من الاقباط الذين دخلوا حديثاً في المذهب الكاثوليكي . وبعد هنيهة دخلت فتاة صغيرة بين جاريتين فحيتني كالعادة ثم اخذت من جارتها صينية كبيرة عليها المرطبات في اطباق من البلور وأخذ بلاعق صغيرة من الفضة . ثم جلست بالقرب من امها وقد ابت اولاً ان تجلس امامي . فحدقت نظري فيها فاذا هي لم تزل صغيرة ولم تكد تبلغ سن الحلم ولا تكامل نموّ جسمها وبينها وبين امها شبه تام كأنها صورة مصغرة لها . وقالت لي انها تعلمت القراءة في مدرسة الراهبات الفرنسيسكانيات واخذت عنهن بعض كلمات ايطالية وحقيقة رأيت في هذه الاسرة ما سرني من الادب والحشمة واعلمني ابو الفتاة بانهُ لا يقبل ان يزوج ابنتهُ الاَّ في دير الافرنج او عن بد فتصل فرنسا فوعدتهُ بالجواب النهائي بعد التروي . ثم خرجت من هناك مودعاً شاكراً لطفهم

وفي اليوم التالي كان احد « الشعانين » عند الافرنج ووافق في هذه السنة عيد الفصح عند اليهود . وفي هذا العيد يحمل النصارى سعف النخل والزيتون في الكنائس ففي مساء

هذا اليوم قصدت النزهة في حديقة وراء الموسكي يقال لها جنائن رشيد بالقرب من درب الجنينة يقصدها اهالي القاهرة عموماً للنزهة بين بساتين نضرة وحدائق غناء تجري المياه في وسطها في سواقٍ وبحيرات وتروى من النيل في شهور الفيضان . وهناك سواقٍ تدار بواسطة الثيران فتخرج المياه من آبارها في ادلاءٍ مربوطة فيها وتسمع منها في دورانها نغم شجي كسجع الحمام، وهذه الفيطان الخصبة واقعة بين حي الافرنج وحارة الاقباط (وهي البقعة الكائنة الآن بين محل ستين ومحكمة الموسكي وبنك الزهونات قرب البوابة القديمة لحي الافرنج والمعروفة الآن بدرب الجنينة ودرب البرابرة) وبين هذه الحدائق بيوت بعض الفناصل وبيت الدكتور كلوت بك طبيب الباشا الحاكم وغيرهم من الافرنج وهناك بساتين الليمون والبرتقال واشجار النخل والموز والجميز

فقصدت في ذلك اليوم تلك الجنائن والدخول اليها من حديقة البيت الذي يقطنهُ قنصل دولة سردينيا ويجب نقد البواب والبستاني بعض دريهات حسب العادة . ثم دخلت الى حديقة نضرة مسوّرة وهي للدكتور كلوت بك جعل قسماً منها لتربية النعام والزراف والغزلان واقام بعض التوبيين على حراستها والقسم الاخر يزرع فيهِ شجر التوت لتربية الحرير . فادى بنا السير الى منعطفات بين الفيطان ودخلنا الى حديقة اخرى لبعض الفناصل مزروعة موزاً وهناك بحيرة واسعة وكشك تحت دوالي العنب مدعوم باعمدة من خشب لجلوس المتنزهين . وهذه المتنزهات قاصرة غالباً على النساء في يوم الجمعة للمسلمات ويوم السبت للاسرائيليات ويوم الاحد للمسيحيات عموماً . فالاوليات يأتين محجبات اما الاخريات فسافرات الوجوه الاَّ اذا مرَّ امامهنَّ رجل فيسدلن النقاب على وجوههن وكثيراً ما يأتين الى هناك ومعهن خادماتهن يحملن حصيراً او سجادة يجلسن عليها وسلالاً مملوءة من الاطعمة والحلوى

فلما وصلت الى هناك رأيت النساء زمراً زمراً بين الحدائق تحت ظلال الاشجار او على ضفاف السواقي فقصدت مكاناً منفرداً وجلست على جذع نخلة ساقطة . وفيها انا كذلك اذا بفلاح اقبل نحوي وهو يضحك متودداً فلما تفرست فيهِ عرفتهُ وهو اخو العروس الصيدية التي رأيتها بالامس فكلمني كلاماً لم افهمهُ واخيراً فهمت من اشارتهِ انهُ يدعوني للدخول الى الكشك فاخذني الى هناك واشار اليَّ ان لا انتقل من موضعي . ثم تركني وذهب وبعد هنيهة رجع تبعهُ امرأتان محجبتان فدخلتا ورفعتا النقاب عن وجهيهما فاذا هما العروس

وامها فنهضت وحيتهما بلطف ودعوتهما لمجلوس فجلسا وكانت اشارات الايدي والعيون لقوم مقام الحديث بيننا . واخيراً تذكرت ان الفتاة قالت لي انها تعلمت شيئاً من الايطالية في مدرسة الراهبات فكلمتها بها فاذا هي لا تحسن النطق الاَّ ببعض جمل يسيرة مشوبة بلهجة عربية . واشرت الى احدى اشجار النخل وقلت لها بالايطالية — في هذا اليوم عيد النخل فخرجت الى الحديقة واتت بغصن صغير من نخلة وقالت لي « ابوسونو رومانو . سياقستا » . فعلمت ان مرادها انها كاثوليكية تابعة للكنيسة الرومانية وان هذا اليوم عيد عندها لان عيد الشعانين عند الاقباط الارثوذكس لم يحن بعدُ . وفي نظر نصارى الشرق ان كل الافرنج رومانيون . كأنها تقول لي تلميحاً ان لا مانع دينيّ من زواجي بها في كنيسة الافرنج

وعند الغروب ودعت الام وابنتها بعد ان وعدتهما بزيارة اخرى وخرجت من جنائن رشيد تاصداً مشاورة فنصلي واصدقائي في امر زواجي . وفي اليوم التالي ذهبت الى صديقي سليمان آغا وكلتهُ بهذا الشأن فقال لي « تزوج حسب شريعتك » ولما شاورت صديقي المصور مارلهات قال لي « تزوج كيفما شئت بشرط ان لا يكون العقد مدنيًّا في القنصلاتو » فرأيت الصواب في كلامهِ . ترى هل جننت حتى اتزوج عن بد القنصل او في دير الافرنج زواجاً ابدياً بفتاة صغيرة جاهلة في الخامسة عشرة من عمرها ؟ وهل استطيع ان اتحمل عبء هذه المسؤولية ماديًّا وادبيًّا كل ايام حياتي ؟

فعزمت ان أقطع كل صلة مع هذه الاسرة وارسلت هدية لائقة الى الفتاة وصرحت لاهلها بواسطة الوكيل اني لا اتزوج بفتاة تحسب كابنتي . وبعد يومين حضر ترجماني عبدالله من السويس ورأيتهُ ناقماً عليَّ اذ قال لي هذا ما كنت اخشاهُ فقد اغتنموا فرصة تغيبي عنك وخدعوك واراد وا ان يزوجوك بفتاة صغيرة عن بد القنصل . فقلت لهُ ولكني صرفتهم بالحسنى وعدلت عن الزواج . قال نعم ما فعلت . وقد قال لي محمود انهم طلبوا منك مهراً . قلت كم كانوا يؤملون مني قال عشرين الف غرش لانهم يحسبونك غنيًّا شريفاً . فعدلت عن الزواج لما فيهِ من المصاعب واتبعت مشورة عبدالله وهي ان اشتري جارية من سوق الجواري لتقوم بخدمة منزلي مدة اقامتي في مصر

ديتري تنولا

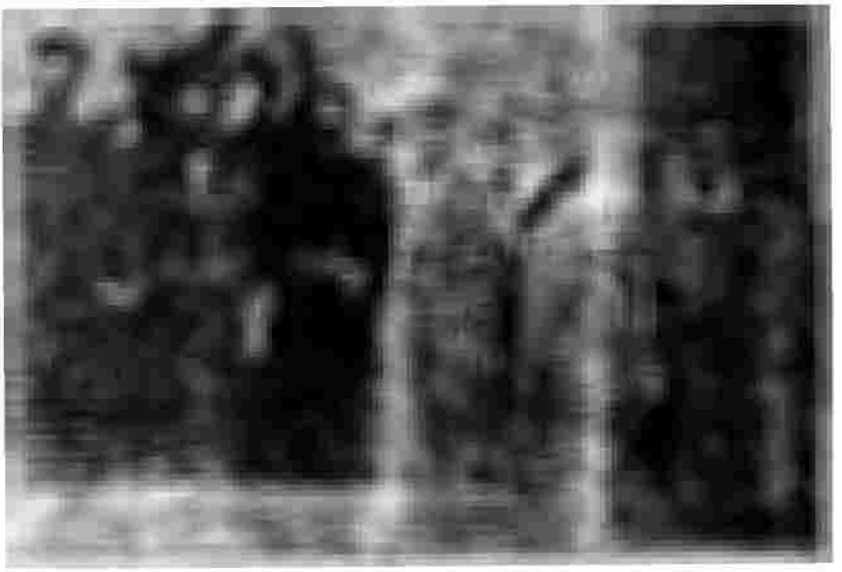

وفد انور الى السيد السنوسي

(١) الدكتور عبد الغني بك (٢) احمد صوان (٣) الدكتور حافظ عفيفي
(٤) القائم مقام نوري بك (شقيق انور بك) (٥) فهمي علي (٦) نيازي بك

محل نزول وفد انور في جغبوب

مقتطف ابريل ١٩١٦

امام الصفحة ٣٦٣